المدينة التي قتلها الصمت

مسرحية بقلم محيي الدين اسماعيل

الشخصيات :

الملك كشترا
قائد الفرسان كونتاي
كبير الفرسان ريماندا
الفارس ساتي
الحارس
الجندي
الرسول
الحاجب
أشخاص اخرون

المشهد الاول

(الوقت مساء . قاعة العرش الكبرى . في صدرها العرش يجلس عليه الملك ، وهو لابس السواد ، وعلى صدره ماسة كبيرة . ازاء جدران القاعة ، كراس من طراز قديم جدا . وفي وسط القاعة منضدة كبيرة وحولها بعض الكراسي وعليها أوراق ملفوفة ، وقد ربطت بشرائط متعددة الالوان ، وكتاب كبير ، وفي وسط المنضدة مزهرية من طراز قديم جدا ، وراء الملك شباك طويل ، يمتد من السقف حتى بلاط القاعة . على الجدران علقت رايات وأعلام مختلفة الالوان . حول الملك يقف رجال البلاط بملابسهم الرسمية . يتقدمهم قائد الفرسان. الملك مشغول بقراءة بعض الوثائق . رجال البلاط يتهامسون فيما بينهم . بعد لحظات يضع الملك الوثائق امامه) .

كشترا : والان ألم يصل بعد الرسول الذي أوفدناه ؟ لعله هلك في الطريق بسبب صقيع الشمال ، فما زلنا ننتظره منذ الامس .

كونتاي : من يدري ؟ لعله هلك بسبب الصقيع ، او ضل في الغيوم الكاسحة على جبال التخوم ، او لعل رعودا قاصفة مزقته . فتخوم الشمال تغلي أحشاؤها بالنذر العجيبة في هذه الايام .

كشترا : نعم يا كونتاي ، تغلي احشاؤها بالنذر العجيبة ... ولكن من السماء ... الرعود القاصفة من السماء ... الغيوم الكاسحة من السماء ... الصواعق جميعها تنقض من السماء ... الاجرام الملتهبة من السماء ... جميع تلك النذر من السماء ... اما الارض فصامتة خاشعة ، ليس فيها سوى الصقيع !

كونتاي : بلى ! انها نذر السماء للارض ! (جانبا)

السماء تجلد الارض ... تصفعها على وجهها ... تبصق في جبينها الذليل ، لعلها تستيقظ .

الحاجب : (يطرق الارض ثلاثا برمحه فيتوجه الجميع بأنظارهم صوب الباب)

رسول مولاي الملك !

كشترا : فليدخل حالا !

(يدخل الرسول لاهثا ويجثو أمام الملك)

لقد طال انتظارنا لك أيها الرسول حتى كدنا نيأس من عودتك . تعال حدثنا عما رأيت ... عن كل شيء !

الرسول : مولاي الملك ! لقد توغلت هناك ، كما أمرني مولاي الى ما وراء قلعة الحرس الكبرى هناك رأيت كل شيء ... رأيت كل شيء يا مولاي ، بعيني ...

كونتاي : وماذا رأيت ؟ حدثنا أيها الرسول !

الرسول : بعيني هاتين ، رأيت كل شيء ... شيء مفزع حقا !

كشترا : (فيما تسري همهمة بين رجال البلاط ، يقف الملك مغضبا)

ماذا تقول ؟ دعوني أسمع يا رجال ! قف يا فتى ! ماذا قلت ؟ شيء مفزع !؟ أنت تعلم رغبتنا ورغبة رجالنا في البلاط عندما أوفدناك في هذه المهمة الصعبة .

(ينظر رجال البلاط الى بعضهم البعض)

... والان ، حدثنا أيها الرسول ... حدثنا عن حراس مملكتي ومملكة أسلافي العظام ... عن رماحهم المسنونة ، ودروعهم التي هي أشد ألقا من جميع كواكب السماء ، وعن البرج الصامد الذي ابتنيته تخليدا لذكرى أبي الشهيد ! تكلم ايها الرسول !

الرسول : (متلعثما)

نعم مولاي ... مولاي ... رأيت كل شيء ... رأيت جنود مولاي الملك ، على التخوم ، برماحهم المسنونة ، ودروعهم التي هي أشد القا من جميع كواكب السماء ... وهناك ... هناك رأيت البرج الشامخ الصامد ، الذي ابتناه مولاي الملك ، تخليدا لذكرى مولانا الملك الشهيد ... جنود مولاي هناك ، بانتظار كل ما يمكن ان يكون ...

كشترا : (مقاطعا بغضب)

بانتظار ماذا أيها الاحمق ؟... يا للغباء ! وأنت أيضا أيها الصعلوك ، تتحدث عما يمكن أن يكون ! بانتظار ماذا أيتها الحشرة المسحوقة تحت النعال ؟ ما يمكن ان يكون

هو بأمري .. وأما ما لا يمكن ان يكون ... فهـــو بأمري أيضا !

الرسول : (مذعورا)

مولاي !... مولاي !... بانتظار أمـــر مـولاي .

الجميع بانتظار أمر مولاي .

كشترا : نعم ، بانتظار أمري . هذا هو كل مـا فـي الامر . اذن فليسمع رجال بلاطي الكرام ، شهادة هـــذا الرسول العائد توا من التخوم . ذلك هـــو وعد السماء ، فقد انتهت النذر . أرأيتم يا رجال بلاطي الاعزاء ؟ ذلـــك هو وعد السماء . ان الايمان وحده لا يكفـــي . ينبغي ان نبتهل شكرا للسماء .

(يرفع الملك يديه مبتهلا . ويرفـــع رجـال البلاط أيديهم بعده ، ما عدا كونتاي قائد الفرسان ، فانه ينتبـــذ ناحية ويرفع رأسه الى السماء . لحظة صمت)

كشترا : كونتاي يا طليعة فرساني البواسل ! لماذا لم تنضم الينا في الابتهال ؟

كونتاي : الابتهال مع الفجر ينبوع لا ينضب . سأبتهل مع الفجر ، قبل ان يغور اخر نجم من السماء ... سأبتهل طويلا وعميقا بين ذراعي الفجر .

كشترا : حسنا !... والان يا رجالي ، يـــا رجال العهد ، بعد ان استمعنا الـــى شهادة الرسول ، عليكم ان تخرجوا الى المدينة لتعلنوا لافـراد شعبي ، مـــن أقصى المدينة الى أقصاها ، ان ليس ثمة شيء يمكن ان يكـون الا بأمري ، واما ما لا يمكن ان يكون .. فهو بأمري أيضا . كل شيء وادع مستكين يستمطر رحمتي . أريد ، يـا رجال ، ان تهدأ ثائرة الناس ، ليعودوا الـــى أعمالهـــم وحرفهم مطمئنين ، فقد انتهت بذاءة أولئك الذين أرادوا ان ينزلوا بالشعب أفدح الالام ، وان يبتدعوا لـــه اوهاما ورذائـل جديدة . لقد حلت نهاية أولئك الذئاب الذيـن يريدون ان يحكموا المدينة من الظلام .

والان ... اسمحوا لي ، يا رجالي ، ان اذهب الـى الملكة ، فهي بانتظار هذا النبأ السعيد ، منذ الامس .

(كمن يحدث نفسه)

وسأطبع على خدها الايمن ، فـــي موضع الغمـازة الحسناء ، قبلة مع هذا النبأ السعيد .

(يلتفت الى رجال البلاط) والان تفرقوا في المدينة ، يا رجال ! وحذار ان تعلن سوى شهادة هـذا الرسول .. والى اللقاء ... وأنت يا كونتاي ، لا تنس ان تبتهل مـــع مطلع الفجر للسماء ...

كونتاي : لن أنسى .. لن أنسى .

(يخرج الملك . وبعد لحظات مـن الصمت والحيرة ، يخرج رجال البلاط متثاقلين ، ويتخلف كونتاي وريمانـدا كبير الفرسان والرسول)

كونتاي : أما زالت هناك سوق للحماقات والاكاذيب ؟ أتظل هذه الفنون الدموية تستمد طغيانها من هذا الصمت ؟ أيظل صمتنا هذا صمتا بلا معنى ، وبلا ألم ، لانه اصغر من الالم ، وبلا جبن ، لانه أضعف من الجبن ؟ هذا الصمت .. عـالم عجيب تسكنه الارواح الشريره ، والاشباح المضللة، تريد ان تقود خطانا إلى الهاوية . ألا نستطيع أن نجتاز هذا الحاجز الخانق ؟... والان ، تعال أيها الرسول ! أنظر الى يديك أنظر اليهما جيدا ...

الرسول : نعم سيدي ... ما بهما ؟

كونتاي : (يضحك بألم)

يداك هاتان ، ألا ترى فيهما شيئا ، أيها الفتى؟

الرسول : لا أرى فيهما شيئا ، يا سيدي .

كونتاي : أنظر اليهما مليـــا ... تأملهمـا (بصوت جهير) ... انك تطبق بهما على أعظم لحظة مـــن لحظات التاريخ ... تطبق بهما على لحظـــة انتحاز الصمت . ألا تريد ان تطلق هذه اللحظة الكبرى ؟ مسكينة هذه اللحظة العذراء ... انها تختنق !

الرسول : لست أدري يا سيدي .

كونتاي : أتعرف ، كيف تطلق تلـــك اللحظة الكبرى التي سينهار فيها جـــدار الصمت الخانق ؟ أنت لا تعرف شيئا عن هذا أيها الفتى . تعال وحدثنا عما رأيت ، هناك ، وراء التخوم .

الرسول : سيدي ، هناك رأيت ، كما قلت ، الكـــل بانتظار ...

ريماندا : (مقاطعا) بانتظار أوامر مولاك . ثم مـــاذا بعد ذلك ؟ تحدث ، فقد أزهقت أرواحنا .

الرسول : سيدي رأيت .. رأيت جنود مولاي الملك.

ريماندا : (مقاطعا) ... بحرابهم المسنونة ، ودروعهم التي هي أشد القا من جميع كواكب السمـــاء ، والبـرج الصامد الشامخ ... اهذا هو كل ما في الامر ؟ تحدث!.. أنطق ولم بكلمة واحدة ، أيها الاحمق !

الرسول : (مرعوبا)

لا شيء يا سيدي ... لا شيء غير هذا يا سيدي .

ريماندا : يا لك من بليد أحمق . حلت عليك وعليـه اللعنة !

(يخرج)

كونتاي : والان تعال ايها الفتى ! اطمئن الى صدري هذا الذي واجه أهوال الملاحم وانفاس الموت . الجميـــع بانتظار هذا . لقد أصبح الجميع يعيشون من أجل هـــذا الانتظار . كفى صمتا ، أيها الفتى . حتى الموتى والشهداء غدوا سجناء الانتظار . بكلمة واحدة يتم كل شيء . وبعد ذلك أترك لي أن أنشد المرثية الاخيرة .

الرسول : آه ما أشقاني !... لماذا وقع علي الخيار ؟

كونتاي : ومن يدري ، لماذا وقـع عليك الخيار ؟... لعل الخيار وقع عليك ، لانك من أعظم عصاة التاريخ أيهـــا الفتى الصغير !

الرسول : من أعظم عصاة التاريخ ؟! أواه !.. لم أعـد أفهم .. ألم يعد هناك فارق بين العصيان والاذعان ؟

كونتاي : عبث عقيم ! كلمة واحدة ، كالموت ، وينتهي كل شيء .

الرسول : سيدي ، لا أستطيع . أريد هدنة مع نفسي ، أحس كأن جميع الضباب المحلق فوق التخوم ، يطوف في جمجمتي .. جميع ضباب العالم هنا في رأسي (يضرب رأسه بيديه) .. العصيان .. الاذعان .. كلمتان من ضباب ... كل شيء ضباب في عيني .. كل شيء ضباب .. ضباب (يبكي) .

كونتاي : (كمن يحدث نفسه)

وهكذا تكون الهدنة ضياعا أيها الفتى ! هكذا تخسر الخيار في عالم من ضباب هناك طريق واحدة ، لا غير ، تقودنا الى ما وراء هذا الحاجز الملكي . علي أن أخطو اليها ، فلن تصرفني عنها جميع لعنات الارض (يلتفت الى الرسول) وأنت أيها الفتى ، انصرف الان ، وليكن لك سلام مع نفسك . أما الهدنة فضياع ، يقذف بك الى عالم الضباب . عد الى حضن أمك ، فهي ما زالت بانتظارك منذ أمس الاول .

الرسول : سيدي ، شكرا لك ومعذرة يا سيدي !

(يخرج)

كونتاي : أعذرك أيها الفتى ، وليكن لك سلام مع نفسك !

ان ذلك الحاجز لاعلى من قامتك بكثير . ولكن من يدري لعلي لا أستطيع ان اجتازه . لعلي لن أكون من ضحايا الصمت والانحلال ، والمجد والسلطان . لعلهم سيطعنونني بخنجر في الظهر ، ويظلون يصفقون بسخرية كسخرية الاطفال .

ولكن لا بأس ، فسيستفيقون على اخر مقطع من تلك المرثية ... سيهبون مذعورين عن أفرشتهم البالية ، وقد اختنقوا بمقاطع المرثية السوداء .

آه ! كم أنا متعب الان ! ان هذه المرثية السوداء لا تنفك تدوي في أذني .. مسكين هذا الفتى ، انه تصميم بلا تنفيذ . ولكم كنت قاسيا ومنافقا ! لقد اردت ان ادفع به ليحمل عني عبء التنفيذ . ولكنه كان واهنا يرتعد ... والان الى الغد ... الى الغد ...

(يدخل فجأة ساتي حارس كونتاي ، مدججا بالسلاح وعلى خوذته ريشة بيضاء)

ساتي : وماذا في الغد يا سيدي ؟ أتحتاجني غدا ؟

كونتاي : أهذا أنت يا حارسي الامين ؟ غدا ؟... لا ... لا أظن اني بحاجة اليك غدا ...

ساتي : سمعتك يا سيدي ، تقول كلاما لم أتبينه ، وتقول بعده : « الى الغد »

كونتاي : ساتي !... اعفيتك الليلة من دور حراستك .. اذهب ضاحكا الى بيتك ، فهناك زوجتك بانتظارك ، بدونك ستظل ترتعش الليلة حتى الفجر ... ولا تنس ان تلقي عنك هذه الحفنة من الحديد يا ساتي .

ساتي : الان يا سيدي ؟ وكيف ؟ هل نسيت ؟ لم أعد أفهم يا سيدي .

كونتاي : لست بحاجة اليك الليلة يا ساتي العزيز .. وانت لست بحاجة الى هذه الكومة من الحديد ...

ساتي : ولكن كيف ؟

كونتاي : كومة من قش ...

ساتي : ماذا تقول يا سيدي كونتاي ؟

كونتاي : كومة من قش .. كومة من قش لا غير !

(يخرج ويترك ساتي وحيدا يتلمس ببلاهة سيفه)

ستار

المشهد الثاني

(الوقت في الهزيع الاخير من الليل .

قاعة كبيرة في وسطها منضدة كبيرة ، عليها بعض الاسلحة والدروع ، ومجموعة من الشموع . وعلى الجدران علقت سيوف ورماح وتروس وبعض الرايات والاعلام . شباك مربع ، يطل على ساحة المدينة . بعض الكراسي القديمة الطراز متناثرة في أرجاء القاعة .

كونتاي بالقرب من الشباك ، يتأمل السماء بصمت . ريماندا وساتي وبعض الجنود ورجال البلاط بانتظار أن ينهي ابتهاله ويتحدث اليهم .)

ريماندا : انه يطيل الابتهال الصامت اليوم . وأرى انه قد تغير كثيرا منذ الامس . بدأ الفجر يطل علينا ... أطفيء الشموع يا ساتي ، واتركه في احضان الفجر .

(يتقدم ساتي ويطفيء الشموع)

ولكن الى متى ننتظر ؟ انني أخشى أن يبددنا نور الفجر ... تقدم اليه يا ساتي واهمس في أذنيه ...

ساتي : اخفض من صوتك يا سيدي ، انه يوشك ان ينهي ابتهاله ... ما أشد شحوب وجهه اليوم ، حتى لاكاد أنكره ، لفرط ما تغير !

(بعد لحظات ، ينهي كونتاي ابتهاله ، ويتجه نحو أصحابه)

كونتاي : أما زلتم هنا بانتظاري ايها الاصحاب ؟ أية أسرار كانت تتململ في الليلة الماضية ، بانتظار الصبح !

ريماندا : الانتظار !... الانتظار !.. لم نعد نملك شيئا سوى الانتظار يا سيدي كونتاي . والان نرى ان يخرج ساتي الى سوق المدينة ليجمع من حوله الناس ، وعندئذ تخرج اليهم لتقص عليهم قصة ما ينتظرون . لقد أزف الموعد يا سيدي ، والفجر قد أشرق ...

(كونتاي يقف ساهما ونظره معلق في الشباك)

سيدي كونتاي ما لك واجما ؟ علينا ان نبدأ حالا . لقد سئمنا الانتظار .. لقد أطفأنا الشموع .

كونتاي : لم يعد أمامك سوى الانتظار يا ريماندا العزيز !.. مخلوقات سجينة الانتظار في عالم الزمهرير والصمت .

ريماندا : هيا بنا يا سيدي كونتاي !

كونتاي : الى أين ؟

ريماندا : ماذا تعني يا سيدي كونتاي ؟

كونتاي : تم كل شيء ليلة أمس . لقد سمعت من هنا صرخات مسمومة تمزق وجه الصمت . دماء آسنة كدماء المستنقعات تتدفق من وجه الصمت الكريه .

ريماندا : ماذا تقول يا كونتاي ، يا سيد الملاحم والاهوال ؟

كونتاي : (بصوت مهيب) لقد تم كل شيء يا ريماندا العزيز .. لقد فات الاوان .

الجميع : فات الاوان ؟

كيف ؟ فلنخرج .. فلنمزق الصمت .. الموت للصمت !

كونتاي : مهلا اخوتي ! .. (مشيرا باصبعه الى الشباك) مع هذا الصبح ستغتسل مدينتنا بدمائها ، وسوف نسمع الانين يفتت الاكباد والنحيب بين القبور والركام والاشلاء .. ولسوف تسمعون صرخات النكر الحمراء ، وتختنق المدينة بالدخان ، وتذوب كما يذوب الشمع بالنار ، حتى ترتفع صرخاتها فلا تسمع منها شيئا .. وسوف تشرق الشمس مرة اخرى فتجف تلك الدماء ، لنسأل أنفسنا ! أين أهوال الامس ؟

ريماندا : اذن ، فلنبدأ قبل مشرق الشمس يا سيدي كونتاي .. فلنبدأ حالا ... هيا بنا !...

كونتاي : لقد تم كل شيء يا صحاب ، وعما قريب تدفع الثمن باهظا مدينتنا الغافية .. سنعرف غدا برودة الظلام اذ تطبق علينا النذر الدامية من فوق .. سنظل نرتعش من غير دفء ، حتى نخاع العظم .. سنمر في ليل قطبي لا يهدأ زمهريره .. سنبكي .. سنبكي طويلا .. سنندم .. سنندم طويلا ، قبل ان تجف الدماء تحت الشمس ، فتنبعث العطور القديمة الخصبة ...

ريماندا : ما تقول يا سيدي كونتاي ؟

كونتاي : تلك هي أسرار البارحة التي كانت تتحلل بصمت ، استمعوا اليها .. انصتوا ! (أصوات تقترب من بعيد فتتضح صرخات وقرع طبول وأصوات أبواق ووقع حوافر خيول ... جموع هادرة تصخب)

الجميع : ما هذا ؟ أنصتوا ... أنصتوا ... حقا لقد تم كل شيء ... لقد حلت النهاية ...

كونتاي : ومن هذه النهاية سنبدأ من جديد ..

ريماندا : يا للعار (يجهش بالبكاء) يا للعار ؟ يا لعارك يا ريماندا !..

(الجميع يتطلعون من الشباك ، ويظل كونتاي واقفا بصمت .. يدخل احد الجنود جريحا ...)

الجندي : سيدي كونتاي ... آه ... هول لا عهد لاحد بمثله ... لقد هبطوا علينا من الجبال ... مع مطلع الفجر ... الغزاة السود ... يسحقون المدينة سحقا ... آه ... كشترا اللعين خرج لاهثا جاحظ العينين من قصره .. لقد مزقوه ... قتلوه ... ألقوا بجثته النتنة في النهر ... سيدي كونتاي آلهة سقر خرجت بكل جوعها الابدي . لقد انتهى كل شيء . كل شيء رماد ... رماد ودم ... آه !... (يسقط على الارض ويموت)

الجميع : يا للعار !... النساء !... الاطفال !... عرض مدينتنا يتمزق ، وليس الصمت . أهكذا ننتهي ؟ يا للعار !... الدم يجمد من هذا الهول !.. ما العمل ؟

كونتاي : ذلك هو ثمن الصمت ندفعه اليوم . ولكن لا تنسوا يا صحاب ، ان هناك زهرة تنمو من الدم والرماد ... زهرة الدم والرماد .

(أصوات تقترب وصرخات)

ريماندا : ها هم يقتربون !.. يقتربون !.. هذه الفيلان الجهنمية المسعورة !.

كونتاي : تفرقوا يا صحاب !.. الى أن تنمو زهرة الدم والرماد .

(يخرجون . كونتاي وحده)

كونتاي : الى الملتقى يا صحاب !.. مرة أخرى في الانتظار ، سأنتظر .. سأدخل ذلك الليل القطبي الذي لا يهدأ زمهريره ، وسأرتجف حتى نخاع العظم ، الى ان تظهر تلك الزهرة الوديعة : زهرة الدم والرماد ، فتعبق بالعطور القديمة المنصاب .. الى الملتقى يا صحاب ..

(تهب ريح عاتية : تصطفق الابواب ، ويسود ظلام .. كونتاي وحيدا ..)

ستار

بيروت **محيي الدين اسماعيل**

صدر حديثا :

اخر رواية كتبها الاديب الكبير

كولن ويلسون

ترجمة يوسف شرورو وعمر يمق

الشك

رواية عاطفية ، وفلسفية ، وبوليسية ... في وقت واحد ! وهي كذلك فضح لاساليب اليهود الاجرامية وتحليل لتأثير المخدرات !

من هنا كان غنى رواية « الشك » ، وما تثيره لدى القارىء من شوق وفضول ... وليس ذلك غريبا على واحد من اكبر مفكري هذا العصر ...

منشورات دار الاداب **٥٠٠ ق.ل**